خـــاتمـــة

وبعد .. فهذه جولة فى أشكال التعبير الشعبى التى تظهر لدى شعوب العالم بأسره • وقد حاولنا قدر الامكان أن نقـــدم نماذج لكل شكل من تراث الأدب الشعبى العـــربى •

وربما كان هذا البحث ردا على هؤلاء الذين ينكرون قيمة التراث الشعبى • ونـــود أن نذكر هؤلاء بالحكمة الشـــائعة التى تقـــول : « أفهمنى ثم اقتلنى » • فالقاتل قبل الفهم لا يصح فى أى عـــــرف انسانى • وربما أزال الفهم الشك وجلا الحقيقة ، فلا يتم القتل بناء على ذلك • وبالمثل فان فهم أى تعبـــير أدبى واجـــب قبل التعـــرض لتجريحه • ان الأديب الفرد يؤلف قصصه وشعره ومسرحياته ثم يقدمها للجمهـــور • فيأتى الناقد ويتنـــاولها بالدرس والتمحيص ، ويكشف عن مغزاها وفنيتها • فهو اذن يقوم بعملية خلق جديدة لهـــذا العمل الأدبى • وبهذا يعمق ادراك القارىء لهذا العمل الأدبى ، بل ويعمق ادراكه للحيـــاة فى الوقت نفسه • وبالمثل فان التراث الأدبى الشعبى يحتاج الى نقد تفسيرى يكشف عن جوانبه المتعددة • فربما دفع هذا المختصين الى بذل الجهد فى دراسة التراث الشعبى وجمعه جمعا علميـــا دقيقا • بل ربما شجعهم كـــذلك على الاهتمـــام بعنصر الرواية • حيث أن عملية الرواية تعد الأساس الأول الذى يحـــافظ على التراث الشعبى ويساعد على تطوره •

ان الانسان الذى ينتزع نفسه من جـــذوره ويثور على تراثه وتقاليده ، انما هو انسان ضائع فى الحياة • وهو شبيه بتلك النماذج المرضية التى يصورها نجيب محفوظ أروع تصوير فى قصصه ، مثل سعيد مهران فى قصـــة اللص والكـــلاب ، وعمر الحمزاوى فى قصـــة الشـــحاذ •

وقـــد ســـبق أن قارنا بين عملين ذاتيين وعملين شعبيين ، وذلك فى أثناء مقارنة الحكاية الخرافية الشعبية بالحكاية الخرافية الذاتية ، وحكاية توراندوت الشعبيـــــة بمسرحية توراندوت للكـــاتب شيلر ،

فوجـدنا أن الحكاية الخـرافية الشعبية ومثلها حـكاية توراندوت الشعبية ، تعبـران عن أفكـار أكثر شـمولا من مثيلتهما فى الأدب الذاتى • وما ذلك الا لأن الفرد الشعبى متفائل دائما ، ويسـعى الى تحقيق الكل • فهو اذن يبنى ولا يهدم ، وينشط ولا يخمل •

واذا نحن أمعنا النظر فى احتياجات الشعب الجوهرية المتشابهة فى كل زمان ومكان من ناحية ، وفى الوسائل المختلفة التى اصطنعهـا لتحقيق هذه الرغبات من ناحية أخرى ؛ لربما انتهينا الى أن حـركة التفكير الانسانى قد تطورت من مجال السحر الى مجال الدين فمجال العلم • أما فيما يختص بمجـال السحر ، فقد اعتمد الانسـان على قوته فى مجابهة العقبات والأخطار التى تحيط به من كل جانب • ذلك لأنه صور لنفسه نظاما معينا للكون واعتقد أنه فى وسعه أن يتفـاهم مع ظواهره المتعددة عن طريق السحر • فلما اكتشف الانسان خطأه ، وادرك فى حزن بالغ أن كـلا من نظام الكون الذى صـوره لنفسه ، والوسائل التى استعان بها على التفاهم معه كان وهم خيال ، كف عن أن يعتمد على هذه الوسائل ، ورمى بنفسه فى تواضـع فى أحضـان القوى الغيبية التى تقع وراء قناع الطبيعة ، أى أنه خضع للنظـام الدينى • وبمرور الزمن أخذ العلم يتسرب الى حياة الناس وتفكيرهم وعند ذاك أدرك الانسان أن الغيبيـات لم تعد تكفى حيـاته بشتى مشكلاتها وتجاربها ؛ فلا بد من التفكـير العلمى الى جانب التفكـير الدينى ، ولابد من الاتصال الوثيق بالعلم الى جانب الاتصال الوثيق بالسماء • فلما سيطر العلم بعد ذلك على حياة الناس كل السيطـرة ، تضاءل الاحساس الدينى • ووهنت العـلاقة القـوية بين السـماء والأرض • وهكذا أخذ انسان عصر العلم ينفصـل عن تراثه شـئيا فشيئا حتى انتزع نفسه عن جـذوره أو كاد • ولكن لمـا لم تكشـف له هذه الحياة عن أية راحة نفسية ؛ فقد حـاول الانسان الارتـداد الى الوراء باحثا عن أصـوله الروحية • وسرعان ما ظهـر أثر هـذا الارتداد فى الأدب الحديث • وربما كانت قصـة « زوربا » للكـاتب اليونانى كانتزاكس أروع مثال على ذلك • فعلى الرغم من أننا نشعر

فى هذه القصة بمأساة الانسان فى أعماقنا ، الا أن بطلها شاء أن يكون بطلا خرافيا كأبطال الحكاية الخرافية ، اذ كان يود أن يخوض كل تجربة حتى المستحيلة منها بتفاؤل بعيد ، وكان يخرج من كل تجربة سعيدا بمصيره • لقد ألغى كل العلاقات النسبية بينه وبين البشر ، وأصبح يعيش ــ شأنه شأن بطل الحكاية الخرافية ــ فى علاقة كلية مع الوجود كله •

ولسنا نعنى بهذا أننا ندعو انسان عصر العلم الى التخلف ، وانما ندعوه الى اعادة صلته القوية بالماضى ، والى التعلق الروحى بتراثه • وليس هذا عيبا أو دليلا على السذاجة ، فقد رأيت بعينى كيف أن شعبا بأسره فى بعض البلاد الراقية ، يحفظ شعرا من ملاحمه القديمة ، وكيف أن أساتذة الجامعة يشتركون سواء بسواء مع أفراد الشعب فى الاحتفال بأعيادهم الشعبية ، ويرتدون الزى الشعبى ، وقد ملأهم المرح والتفاؤل •

لنعمل اذن على احياء تراثنا الشعبى ، ولنذيعه فى كل مكان حتى يحفظه الشعب ويحب أبطاله الذين أحبوا الحياة فتحركوا حتى انتصروا على القوى المعوقة فيها •